الرموز الصوتية Phonetic Symbols

الرموز الصوتية هي الوحدات التي تتكون منها ألفاظ اللغة المنطوقة والتي تم الاصطلاح عليها لترمز إلى الصوت المنطوق ، وقد أطلق مصطلح حرف في العربية للدلالة على الرمز الكتابي ، والصوت أيضا الذي يرمز إليه ، فقد استخدم الخليل وسيبويه والمبرد ومن جاء بعدهم الحروف بمعنى الأصوات ، فسيبويه يستخدم الحروف ، وهو يتحدث عن مخارج الأصوات ، وصفاتها . وهذا لا يعني أنهم خلطوا بين الصوت Phoneme ، وهو وحدة صوتية ، والحرف الذي يمثل وحدة خطية ، فتارة يشيرون إليه بالرسم ، وأخرى الكتابة ، وقد أطلقه علماء العربية على الصوت باعتبار معناه اللغوي ، فحرف الشيء حده ، ولهذا قال ابن جني «الحرف حد منقطع الصوت وغايته» [1] .

وقال ابن سيناء «والحروف هيئة للصوت وعارضة له ، يتميز بها عن صوت آخر مثله في الحدة والثقل تميزا في المسموع» [2] . وأطلقه علماء العربية على حروف الكلام أي أصواته المكتوبة فعرفت بالحروف الهجائية .

والحروف عند اللغويين حروف التهجي أو الرموز التي ترمز إلى أصوات اللغة ، وقد جاء الحرف عند القدماء بمعنى الرمز الكتابي ، وجاء أيضا بمعنى الصوت .

واللغة في أصل الوضع أصوات منطوقة ، وجميع اللغات مرت بمرحلة الشِّفاهية ، ثم دونت عندما ظهرت الحاجة إلى الاحتفاظ بها مدة طويلة ، فاخترع الإنسان الكتابة ليرمز بها إلى الأصوات المنطوقة ، فوضع لكل صوت منطوق رمز كتابي أو أكثر يشير إليه في الخط ، وشاركت الحضارات في تطوير الكتابة وإدخال تعديلات فيها حتى وصلت إلى المرحلة الأخيرة وهي الأبجدية .

وقد استعار العرب أبجديتهم من بني عمومتهم الساميين ، فقد تعلموا الخط من جيرانهم الأنباط الذين تعلموا الخط من الفينيقيين ، وقد شاع بين الأمم أن الفينيقيين هم

---

(1) سر صناعة الإعراب 1/ 16 .

(2) أسباب حدوث الحروف ، ابن سينا ط 1352 ص6 .

أول من وضع الأبجدية ، لأنهم كانوا أصحاب نشاط تجاري واسع في البحر المتوسط امتد إلى المدن الساحلية التي تقع على البحر المتوسط ، ولكن البحوث والكشوف التي تمت في القرن التاسع عشر أكدت أن الأوجارتيين (نسبة إلى أوجاريت وهي مدينة بسوريا) ، هم أول من وضعوا الرموز الأبجدية ، فقد قاموا بوضع نحو ثمانية وعشرين رمزا كتابيا ، واستخدموا هذه الأبجدية في الكتابة ، فقام جيرانهم الفينيقيون بإدخال تعديلات على هذه الأبجدية وهذبوها لتكون سهلة الاستعمال ، فتعلم الإغريق منهم الخط ، ولكنهم أدخلوا النظام المقطعي (Syllabic Wrting) بوضع رموز للحركات (ونظيرها في الإنجليزية: a,o,u,I,E) التي ترمز لحركات الفتح والضم والكسر . وقيل إن الفنيقيين هم الذين أدخلوا النظام المقطعي على الرموز الكلمية التي استخدمها المصريون القدماء والفنيقيون وعن الفنيقيين أخذ الإغريق بيد أن الفنيقيين يكتبون من اليمين إلى اليسار فخالفهم الإغريق فبدأوا من اليسار، وعنهم أخذ الأوربيون الكتابة.

وتعلمت أمم كثيرة الخط من الفينيقيين من خلال علاقتهم التجارية بهم ، فنسبوا إليهم وضع الأبجدية ، وليس لهم فضل وضعها بل ما أضافوه إليها ، وما أدخلوه فيها من تعديلات ، ولهم فضل نشرها ، ولكن الفضل الحقيقي في هذا الإيجاز الشديد للرموز يرجع إلى الأوجارتيين الذين قاموا بوضع رموز بسيطة وميسرة ، بعد أن كانت كثيرة ومتعددة وشديدة التعقيد في الرسم كما هو شأن الخطوط التي كتبت بها الأكادية ، والآشورية ، والتي تعرف بالخطوط المسمارية ، لأنها كانت تشبه المسامير ، وتستخدم أيضًا في نقشها ، ويرجع الخط المسماري إلى السومريين الذين كانوا يسكنون العراق قبل هجرة الساميين إليها ، (فيما قبل 5000-6000) ويرجح أنهم من الشعوب الهندو أوربية أو من السلالات الإيرانية القديمة ، فلم يكونوا ساميين . ونصل من هذا أن الخط لم يك من صنع أمة واحدة بل شاركت فيه أمم كثيرة ، وقد أضافت إلي كل أمة شيئًا زاد من أهميته ويسر استعماله ، ويعد الساميون هم أصحاب الفضل في تطويره وتهذيبه ليكون ميسرًا في الاستعمال ، وقد أضافت كل أمة إليه ما يلائم لغتها .

وكثير من أبناء العروبة والإسلام يعتقدون أن الحروف العربية المستعملة الآن من صنع

العرب ، والحقيقة أن تاريخ استعمال العرب الأبجدية التي نتكب بها اليوم لا يتجاوز ميلاد النبي ﷺ تقريبًا، فكثير من الروايات تؤكد أن الخط الذي بين أيدينا الآن والذي كتب به المصحف الشريف بعد أن أدخلت تعديلات عليه – لم يك منتشرًا بين العرب ، وإنما كان يعرفه أفراد قليلون في مكة وغيرها ممن كانوا يخالطون تجار الأنباط ، وقد تعلمه في بدء الأمر بعض العرب الذين يسكنون دومة الجندل أو ينزلون قريبًا منها ، وهؤلاء كانوا أقرب العرب للأنباط الذين كانوا يعيشون في جنوب الشام في منطقة الأردن ، وتعلم بعض تجار قريش الخط، منهم أبو سفيان ، وأبوه حرب بن أمية ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان رضي الله عنهما وغيرهم .

ولم يك الخط الذي تعلمه هؤلاء مكتملاً ، بل كانت به بعض العيوب ، مثل عدم النقط وكان حرفيًا يعبر عن الأصوات دون المقاطع ، ولم يك شائعًا بين العرب ، مما تسبب في اختلاف الكتابة به ، وقد تدارك علماء العربية هذا فعالجوا هذه العيوب ، فأدخلوا تعديلات عليه في الرسم ، كما زادوا فيه النقط والشكل ، وقد يسد الشكل عيبًا آخر في الخط الذي يعبر عن الصوامت فقط ولا يعبر عن الصوائت أو الحركات .

وقام العرب مثل غيرهم بإدخال تعديلات كثيرة على الأبجدية التي استعاروها من جيرانهم حتى تلائم هذه الأبجدية طبيعة اللغة العربية ، وتفي بمتطلباتها ، فأضافوا إليها ، وحسنوا فيها وهذبوها وعدلوا من رسمها ، وأصبحت لها خطوط عديدة تكتب بها ، وما زالوا يضفيون عليها ويأخذون منها ، حتى كسوها ثوب العروبة ، فأصبحت خطًا عربيًا خالصا يختلف عن الأصل الذي اقتبس منه ، وقد استطاع الخط العربي أن يسد حاجات العربية ، ويفي بمتطلباتها ، فأصبح خطًا حضاريًا يعبر عن فكر الأمة وإبداعها ، واعتورته أمم كثيرة دخلت الإسلام ، ويرجع الفضل كل الفضل في انتشار هذا الخط وتطوره إلى القرآن الكريم ، فقد اعتني به علماء العربية ؛ لأن أول مصحف كتب به . والترتيب الأبجدي القديم الذي نقله العرب عن الساميين هو: أبجد ، هوز ، حطي ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، (ثخذ ، ضظغ) . والست الأواخر زادها العرب.

وتستقل العربية من بين الساميات (العبرية ، والسريانية ، والحبشية) برموز الأصوات

الأسنانية (ث ، ذ ، ظ) ولا يوجد رمز الضاد في العبرية والسريانية ، ولكنه يوجد في الحبشية ، ورمزا الظاء ، والغين لا يوجدان في العبرية ، والسرانية ، والحبشية ، ولهذا فالرموز (ثخذ ، ضظغ) تعد عربية وزاد العرب رموزًا جديدة لها بإضافة زيادة إلى رمز صوت قريب منه أو ما يشاكله ، وتستخدم الساميات هذا الترتيب في خطوطها .

واستحدثت علماء العربية ترتيبًا آخر عرف بالترتيب الألفبائي ، وهو ترتيب عرفه العرب على يدي نصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر تلميذي أبي الأسود الدؤلي . وقد قاما بإعجام الحروف ، وإهمالها ليزول الالتباس بعد ما اختلف الناس في قراءة آيات القرآن ، وقد قام برسم الترتيب الألفبائي Alphabetic Writing المتبع حتى أيامنا : أ ، ب ... وعدد حروفه تسعة وعشرون حرفًا. ويخطئ بعض الناس عندما يستعملون اسم الأبجدية ، وهي تخص الساميين ، أو مستعملي الترتيب السابق ، أو حساب الجمل ، بدل تسمية الألفبائية ، أو حروف المعجم ، وقد ظهر ترتيب عربي آخر ، وهو الترتيب الصوتي الذي اكتشفه الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفي (170هـ) وهو الذي رسم لتلميذه سيبويه أسس علم النحو في اللغة العربية ، فضلاً عن وضع علم العروض وعلم الأصوات ، وقد بناه على تدريج الحروف من أقصى الحلق إلى الشفتين [1]. فكان يذوق الحرف بزيادة ألف على أوله ، وسكون على آخر الحرف كما في: أب ، أت ، أجْ ، أغ ، فوجد أن العين تخرج من أقصى الحلق ، فسمي الكتاب باسمها ، وتابع حتى أتي على آخر الحروف ، ورتبها على الشكل الآتي:

ع ، ح ، ه ، خ ، غ ، ق ، ك ، ج ، ش ، ض ، ص ، س ، ط ، د ، ت ، ظ ، ذ ، ث ، ر ، ل ، ن ، ف ، ب ، م ، ي ، و ، ء .

وعدد حروف هذا الترتيب ثمانية وعشرون حرفًا ؛ لأنه لم يدخل فيها رمز الألف الذي جعله والهمزة صوتًا واحدًا ثم جاء سيبويه فأعاد النظر في آراء الخليل ، وحدد أماكن خروج الأحرف معينا مكان اصطدام هواء الرئتين بالحلق والفم ، والشفتين ، واللسان ، والأسنان.

---

(1) سر صناعة الإعراب لابن جني ص20 . وارجع إلى مقدمة العين للخليل بن أحمد .

وعدل في ترتيب الخليل ، فجاء ترتيبه على النحو الآتي [1]:

ء ، ا ، ه ، ع ، ح ، غ ، خ ، ق ، ك ، ج ، ش ، ي ، ض ، ل ، ر ، ن ، ط ، د ، ت ، ص ، ز ، س ، ظ ، ذ ، ث ، ف ، ب ، م ، و .

وعدد أصوات هذا الترتيب تسعة وعشرون صوتًا وهو ما عليه المحدثون. وتسمى حسب خروجها على النحو الآتي:

1- الأصوات الجوفية أو الهوائية أو المد ، وهي الألف في قال ، والياء في عليم ، والواو في شكور ، وهذه هي الأصوات الطويلة ، والقصيرة فهي الكسرة والضمة والفتحة . وقد سميت جوفية كناية عن فراغ الحلق والفم عند التلفظ بها ، وهوائية ؛ لأنها تنتهي بانقطاع الهواء الخارج من الرئتين ، ومد لأن هواء الرئتين لا يعترضه شيء فيحدث المد.

2- الأصوات الحنجرية ، وهي: الهمزة والهاء .

3- الأصوات الحلقية ، وهي: العين والحاء .

4- الأصوات اللهوية: وهي القاف ، فقط ، وتخرج من منطقة اللَّهاة .

5- الأصوات الطبقية ، وهي: الكاف ، والغين ، والخاء ، وهي من الطبق والحنك الرخو الذي يلي الغار الصلب من الدخل .

6- الأصوات الشجرية أو الغارية (سقف الحنك الصلب) . نسبة إلى شجر الفم ، وهي من بين وسط اللسان وما يقابله من الحنك الأعلى ، وهي ثلاثة مخارجها متقاربة ، الجيم ، والشين ، والياء .

7- الأصوات اللثوية (اللثة العليا) ، وهي: اللام ، والراء ، والنون ، وتسمى أيضا الأحرف الذلقية نسبة إلى ذلق اللسان أي طرفه ، والنون تخرج من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا . والراء تخرج من مخرج النون غير أنه أدخل في ظهر اللسان ،

---

(1) كتاب سيبويه جـ 4/ 431 .

واللام تخرج من حافة اللسان وما يليها من الأسنان العليا .

8- الأصوات اللثوية الأسنانية ، وهي: الدال ، الضاد ، التاء ، الطاء ، الزاي ، السين ، الصاد. وتسمى (ط ، د ، ت) بالأحرف النطعية: نسبة إلى نطع الفم ، وهو سقف غار الحنك الأعلى ، لأنها تخرج من بين طرف اللسان وأصول الثنايا ، وتسمى (ص ، ز ، س) عند القدماء بالأحرف الأَسَلية: نسبة إلى أَسَلَة اللسان أي رأسه ، لأنها تخرج من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا قريبًا من الأسفل ، وتسمى «الصفيرية» نسبة إلى صفتها ، وهذه الأصوات (د ، ض ، ت ، ط ، ز ، س ، ص) يطلق عليها عند المحدثين «الأصوات الأسنانية اللثوية» .

9- الأصوات الأسنانية: وهي ثلاثة الظاء ، والذال ، والثاء ، وتخرج من طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا والسفلى .

10- الأصوات الشفوية نسبة إلى الشفة ، وهي: الباء ، والميم ، الواو ، وتخرج الثلاثة من بين الشفتين ، ولهذا تسمى شفتانية عند بعض المحدثين [1] .

11- الأصوات الشفوية الأسنانية ، ويوجد منها حرف واحد في العربية ، وهو الفاء ، ويخرج من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا.

ويوجد عند القدماء الأحرف الخيشومية نسبة إلى الخيشوم ، وهو أقصى الأنف والخياشيم ، وهي: الميم ، والنون ، والمشددتان في حالتي الإدغام والغنة ، وتسمي الميم والنون أنفيتين ، وليس الأنف مخرجا لهما ، ولكنه حجرة رنين لهما ، فمخرج الميم الشفتين ، ومخرج النون اللثة .

وتسمى الضاد حافية ، لأنها تخرج من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس ،

---

(1) أطلق عليها الدكتور أحمد مختار عمر الأصوات الشفتانية، نسبة إلى الشفتين (كتاب دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب) وأميل إلى هذا الاسم، لنفرق بين ما تشترك فيه الشفتان، وبين ما تشارك فيه الشفة السفلى مع الثنايا العليا، وهو صوت الفاء . وقد بينت ذلك في كتابي «أصوات اللغة». الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي.

وكذلك اللام تخرج من حافة اللسان ، وما يليها من أسنان الحنك الأعلى . هذه هي مخارج الحروف على المشهور بين علماء اللغة المحدثين والقدماء .

وتعد دراسة القدماء مخارج الأصوات من الدراسات المتقدمة التي سبقت جهود الغربيين في العصر الحديث ، وقد اعتمد علماء العربية على الملاحظة والتجريب لمعرفة مخارج الأصوات ورائد هذه الدراسات الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي اعتمد على حسِّه اللغوي وعلمه الغزير، واعتمد كذلك على جهود علماء القراءات القرآنية في هذا المجال ، فاستطاع أن يضع تصورًا علميًا دقيقًا للدراسات الصوتية ، واستكمل جهوده تلميذه الفذ سيبويه الذي طور نظرية أستاذه في الأصوات وعد سيبويه إماما لمن أتى بعده .

وقد وجه بعض المحدثين نقدًا للدراسات الصوتية القديمة ، واتهموا علماء العربية الذين بحثوا الأصوات بالتقصير ، وأن دراستهم الصوتية غير دقيقة وجانبها الصواب في بعض المواضع التي تتعلق بمخارج الأصوات العميقة .

وهم معذورون في ذلك ، ومأجورون – إن شاء الله – أجرين على ما أصابوا فيه ، وأجرًا على ما جانبهم الصواب فيه ، ولهم في ذلك ما يبرئ ساحتهم ، فلم تك لديهم دراسات صوتية سابقة يستعينون بها في بحث أصوات العربية ، هذا أمر ، والثاني يسقط عنهم كل وزر ، وهو أن دراسة الأصوات ومخارجها تحتاج إلى تشريح الجهاز الصوتي وأجهزة تصور المواضع التي تمر بها الأصوات خلال الأداء الصوتي أو نطق الصوت ، وهي الأدوات التي ساعدت علماء اللغة المحدثين في معرفة الجهاز الصوتي . ولم يتمكن العلماء من معرفة الوترين الصوتيين إلا بالأجهزة الحديثة ، وكان هذا عقبة أخرى في تقدم الدراسات الصوتية عند العرب .

وقالت المستشرقة أوديه: «ودون أن نذهب إلى التأكيد أن اكتشاف الحبال الصوتية كان سيعدل من طريقتهم في دراسة اللغة ، فإن من الممكن الافتراض على كل حال بأن معرفتهم غير الكافية بتشريح الجهاز الصوتي قد أعانتهم إلى حد كبير في وصفهم الذي اعتمد جوهريًا

على مخارج الحروف»[1]، بيد أن ابن سينا (370هـ -428هـ) قدم وصفا تشريحيًا دقيقا للحنجرة، وبين أجزاءها وحركتها في الكلام، وبين عملية الكلام وحدوث الأصوات[2].

ولم يستطيع علماء اللغة المحدثين أن يضيفوا جديدًا إلى ما توصل إليه القدماء، إلا بعد أن يسرت لهم الأجهزة الحديثة رؤية الأعضاء الداخلية، وتشريحها، فاستطاعوا أن يصفوها وصفًا دقيقًا، وهو وما لم يستطع عمله القدماء، لعجزهم عن رؤية الأجزاء الداخلية خلال النطق أو تشريحها، ولكنهم استطاعوا أن يصفوا تلك الأصوات وصفًا تقريبيًا.

وتختلف الأسماء التي أطلقها القدماء على أعضاء النطق الداخلية عن الأسماء العلمية التي أطلقت على هذه الأجزاء الداخلية حديثًا، فالأصوات الحلقية عند القدماء: (ع ح هـ خ غ) عند الخيل بن أحمد، وهي عند سيبويه (ء ا هـ ع غ خ) وهي عند المحدثين (ع، ح) فقط، فالهمزة والهاء عندهم حنجريان والغين والخاء طبقيان، ولكن يتبين من حديث القدماء عن الحلق أنه يعني الحنجرة والحلق والطبق معًا، والأجهزة الحديثة هي التي كشف عن الفرق بين الحنجرة والحلق، وقد استطاع سيبويه أن يصل إلى هذا الكشف الحديث في تقسيمه الأصوات الحلقية في قوله: «فللحلق منها ثلاثة، فأقصاها مخرجًا: الهمزة، الهاء، والألف، ومن أوسط الحلق مخرج العين والحاء، وأدناها مخارجًا من الفم: الغين والحاء»[3]، وهو يعني بمنطقة أقصى الحلق ما دونه أي الحنجرة، وهي مخرج الهمزة، والهاء والألف، ثم أوسط الحلق، وهو يعني الحلق نفسه، ثم المنطقة التي تقع أدنى الفم من الحلق، وهي الطبق، وهذا يعني أن الحق اسم عام لهذه المنطقة، فالقدماء لم يستطيعوا وضع تحديد دقيق لهذا المناطق الداخلية التي لا تراها العين، لعدم وجود الأجهزة التي امتلكها المحدثون وساعدتهم في البحث، فالحنجرة والحلق عند القدماء شيء واحد، ولهذا لم

---

(1) بحث في فونولوجيا اللغة العربية ،مجلة الفكر العربي، ليبيا عدد (9 ،8) 1979م ، ص 33.

(2) كتاب أسباب حدوث الحروف لابن سينا، تحقيق محمد حسن، ويحيى مير، ومراجعة الدكتور سالم الفحام، والأستاذ أحمد راتب، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق ط1/ 1983م ص64 والقانون في الطب لابن سينا، مؤسسة عز الدين 1970م جـ1/ 44.

(3) كتاب سيبويه جـ4/ 431.

يستخدموا وصف حنجري في وصف الأصوات التي تخرج من هذه المنطقة .

واختلف المحدثون مع القدماء في مخارج بعض الحروف التي تخرج من المناطق الداخلية ؛ لأن القدماء كانوا في حاجة إلى أجهزة تصور الأعضاء الداخلية خلال النطق ، فاعتمدوا على الملاحظة الحسية من الخارج بوضع الأصابع على المناطق الخارجية ، أو الشعور بالحرف خلال النطق .

والدراسات الحديثة ترى أن الأصوات الحنجرية هي: الهمزة ، والهاء ، والحلقية هي: العين والحاء ، واللهوية هي القاف ، والطبقية: هي الكاف والغين والخاء ، أما بقية مخارج الفم القريبة فلا خلاف فيها إلا في ألفاظ الوصف ، والمحدثون أنفسهم اختلفوا في تصوراتهم للأصوات وما زالت الهمزة محور خلاف بينهم ، فبعضهم يراها صوتًا مهموسًا وبعضهم يراها صوتًا مجهورًا ، وآخرون يرونها ليست بمهموسة ، ولا بمهجورة ، وأميل إلى أنها مهموسة ؛ لأن الحنجرة تكون مغلقة ، ثم تفتح كاملة ، فينطلق الهواء المحتبس دون اهتزاز الوترين الصوتيين اللذين يكونان في حالة ارتخاء تام .

ومصطلح الحرف يشير في علم العربية إلى شكل الكتاب أو الرمز الذي يشير إلى الصوت كتابة ، وأشار به القدماء أيضًا إلى الصوت ، ويفسر المستشرق السوفيتي . غابوتشان ذلك بأن مسمى الحرف في علم العربية جاء نتيجة للتجريد ، ويرى أن التسمية العربية لأي حرف تفيد أشكاله الأربعة ، الحرف المضموم ، والمفتوح ، والمكسور ، والساكن أي أشكاله مع الحركات المختلفة ودون الحركة . ويعني ذلك أن الحركات تعد عناصر صائته تدخل في تكوين الحرف ، وليست صوامت تضاف إلى الحروف ، والحرف المؤلف من عنصرين (صامت ، وصائت) يعد وحدة لا تتجزأ في بنية الكلمة [1] .

والكتابة التي ترمز إلى الصوت والحركة التي تصاحبه مقطعية، فالمقطع يتكون من صامت وصائت (مثل: كا في كاتب) وقد يكون المقطع قصيرًا أو طويلاً وهو نوعان مغلق ومفتوح، فالطويل المفتوح مثل «كا» في كاتب، والقصير المفتوح مثل«ذَ» في ذهاب، والطويل

---

(1) ارجع إلى: غ. م . غابوتشان : حول مسألة بنية الكلمة السامية . اللسان العربي عدد 19م 1 ص33 .

المغلق مثل: «هاب» في ذهاب ، والقصير المغلق نحو: «تب» في كاتب .

ويرى الأستاذ غابوتشان أن الكتابة العربية هي كتابة مقطعية syllabicwriting تسجل المقاطع الصوتية فقط عن طريق تخصيص علامة للمقطع وذلك بالرمز بالحرف إلى الصوت، وبوضح رمز للحركة التي تصحب الحرف ، ويرى بعض الباحثين خلاف هذا معترضين على هذا الرأي ، ويرون أن الكتابة العربية ليست مقطعية [1].

وهذا التفسير الذي قدمه الأستاذ غابوتشان لمصطلح «الحرف» في علم العربية ، يكشف لماذا تدرس الأصوات في علم العربية من حيث تقسيمها إلى صامتة وصائتة ، وقد بين ابن جني في كتابه سر صناعة الإعراب ، الفرق بين الصامت والصائت وفصل الأمر فيهما . وقد لاحظ بعض العلماء أن عدد أصوات العربية يفوق عدد حروف الرسم ، ويرجع ذلك إلى عدم وجود رمزين مستقلين لواو المد وياء المد مثل حرف الألف ، فعدد الحروف في الأبجدية العربية (29) حرفًا باعتبار «لا» حرفًا يمثل ألف المد واللام حاملة لها وذكر سيبويه أصواتًا أخرى في العربية تظهر من الاحتكاك بين الأصوات وتأثير بعضها في بعض، وبعض أصوات ظواهر اللهجات [2]، وقام علماء العربية بالتمييز بين الساكن والمتحرك. لذا بحثوا الألف (التي هي صائت غير قصير) كما بحثوا الهمزة «التي هي أقرب الأصوات الصامتة إلى الألف من حيث المخرج وجعلوا لكل منهما رمزا مستقلا ، (ا ، ء) ، ولكنهم لم يجعلوا لياء المد والياء الصامتة ، ورمزين مستقلين ، ورمزوا لهما بحرف واحد في الأبجدية (ى) ، ولم يرمزوا كذلك لواو المد (التي هي صائت غير قصير) ورمزوا لها بحرف واحد في الأبجدية (و) . والتفريق بين هذه الأصوات بالحروف كان سيدرأ كثيرًا من اللبس والمشقة التي يعانيها القارئ .

وبحث المستشرقون أصوات العربية من حيث تقسيمها إلى صوامت وصوائت ، وأيدهم الباحثون العرب المحدثون في ذلك ، فحددوا الصوامت والصوائت في النظام العربي كما يأتي:

---

(1) مجلة اللسان العربي عدد 20 ، 1404هـ ، 1983م ص13.

(2) الكتاب جـ4/ 433.

- عدد الصوامت (ثمانية وعشرون) صوتًا يدخل فيها الواو غير المدة والياء غير المدة في مثل واو العطف ، وواو ولد ، والياء في يد ، يقظة .

- عدد الصوائت (ثلاثة) أصوات قصيرة هي الحركات (الفتحة ، والكسرة ، والضمة) و(ثلاثة) أصوات غير قصيرة هي (الألف ، والواو ، والياء) وهي الأصوات الطويلة في مثل: عماد ، شكور ، سميع [1].

- وقد درس بعض علماء العربية الأصوات من حيث تقسيمها إلى صامتة وصائتة مثلما بحثوا مخارجها ، وميزوا بين الصائت والصامت ، وقد استطاع ابن جني أني يضع تصورا دقيقا للصوامت وللصوائت وهو غير مسبوق فيه ، ولا يختلف عما أجمع عليه علماء عصرنا ، فالصوت الصامت هو الذي يحدث بسبب اعتراض في مجري الهواء ،قال ابن جني: «اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته ، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا» [2].

والصوت الصائت هو الذي يتحقق من امتداد الصوت واستمراره «فاتسع مخرج الحرف حتى لا ينقطع الصوت عن امتداده واستطالته ، استمر الصوت ممتدا حتى ينفذ» ، ثم يذكر ابن جني هذه الصوائت ، فيقول: «والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة: الألف ثم الياء ثم الواو» [3] ويعني بها حروف المد أو اللين أو العلة . والواو والياء المتحركتان في مثل ولد ، يد صامتتان وليستا صائتتين .

وهذا التقسيم الذي وضعه ابن جني ، ووصفه لا يختلف عما توصل إليه المحدثون ، فالأصوات في علم اللغة الحديث تقسم على نوعين: أصوات صائتة Vowels Voyelles ، وأصوات صامتة Cosonants Consonnes.

---

(1) ارجع إلى بحث الدكتور جعفر دك الباب ، مجلة اللسان العربي عدد 19/ م1 ص35 .

(2) سر صناعة الإعراب ابن جني ، تحقيق حسن هنداوي ، دار العلم ، بيروت ، ط1/ 1405 ، 1985 جـ1/ 7 ، 8 .

(3) نفسه .

(أ) الصوت الصائت يكون صائتًا إذا كان النفس الذي يؤدي إلى إصداره يجري طليقًا لا يعترضه عائق حتى خروجه من الفم حرًا طليقًا دون احتكاك بأعضاء النطق ، ويتبين هذا من خلال نطق صوت "a" أو "o" ، ويتمثل هذا النوع في حروف العربية: الألف ، الواو ، الياء . ولكن العرب لم يرمزوا للحركات القصيرة بحرف بل برمز يوضع مصاحبًا الحرف.

(ب) الصوت الصامت يكون صامتًا إذا صادف النفس الذي يؤدي إلى إصداره عائقًا في موضع بدء صدور النفس من الرئتين حتى يجاوز الشفتين أو يخرج من الفم ، وإن شئنا الدقة حتى يخرج من الجهاز التنفسي الذي ينتهي بالفم والأنف . ويمثل هذا النوع في العربية جميع حروفها التي تبلغ ثمانية وعشرين ، ويدخل في هذه الأصوات الواو والياء المتحركتان في «ولد ، واد ، ويمين ، ويسار ولا تدخل فيها ألف المد في مثل» الوادي ، وشاكر ولا تدخل فيها الواو والياء الساكنتان الممدودتان.

واستطاع علماء العربية كذلك أن يفصلوا بين نوعين من الحركات Vowels ، النوع الأول: الحركات القصيرة Short vowels وهي الفتحة ، والكسرة ، والضمة .

والنوع الثاني: الحركات الطويلة Long vowels وهي: الألف ، والياء ، والواو . أي أصوات اللين والمد . ورأي علماء العربية أن الحركات القصيرة أبعاض الحركات الطويلة قال ابن جني: اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد، واللين ، وهي الألف ، والياء ، والواو ، فكما أن هذه الحروف ثلاثة ، فكذلك الحركات ثلاثة ، وهي الفتحة ، والكسرة ، والضمة، وبعضهم رأى أن الحركات الطويلة امتداد للحركات القصيرة وإشباع لها . بيد أنهم رمزوا للحركات الطويلة بالحروف فقط ، خلافًا للإغريق الذين رمزوا لجميع الصوائت بالحروف وتركوا الحركات فقد أغنت :A, E , O, I , U عن الحركات في الكتابة الإنجليزية وغيرها من اللغات التي تستخدم هذا النظام الكتابي.

ولا يوجد اختلاف بين القدامي والمحدثين في مفهوم الحركات وصفاتها ، فالحركات أصوات مجهورة ولا يسمع عند إنتاجها احتكاك أو انفجار ، لأن ممر الهواء يظل مفتوحًا ،

ويحدث هذا المرور تذبذبًا في الأوتار الصوتية ولولا الجهر فيها لاختلط صوتها بصوت هواء الزفير .

ولقد فرق علماء العربية بين الحركات والحروف على أساس استمرار الصوت الإنساني في الخروج عبر ممر الهواء دون أن يعترضه عضو من أعضاء النطق أو تعرض الصوت لعضو من أعضاء النطق ، فيعوق مرور الهواء بمنعه ثم إطلاقه أو تضييق ممره ، فتتغير هيئته وصفاته التي كان عليها أو يحدث تقسيم للأصوات عندما تعترضها أعضاء النطق في الجهاز النطقي . فالحركات الطويلة والقصيرة لا تعترضها أعضاء النطق ، فأطلق عليا صوائت ، والنوع الثاني الذي تعترضه أعضاء النطق يسمى صوامت ، وتشكل معظم أصوات العربية ، فعدد الصوامت ثمانية وعشرون صوتًا منها الواو والياء الصامتتان ، ولا تدخل ألف المد ، وياء المد ، وواو المد في الصوامت بل الصوائت ، ولا يوجد رمز مستقل للواو أو الياء ، فالرمز «و» يرمز للواو الصامتة ، واو المد الصائتة – وكذلك رمز «ى» يرمز للياء الصامتة وياء المد . والألف لا تكون إلا ساكنة صائتة، ويرمز لها في العربية برمز واحد، وهذا الرموز الصائتة في الأبجدية العربية يجعلها ضمن الأنظمة المقطعية .

نشأة الكتابة

الكتابة سمة من سمات الحضارة والتقدم ، فقد وجد الإنسان حاجة ملحة إلى إيجاد وسيلة ميسرة تحفظ له ما يتعلق بذهنه من أفكار حتى لا تذوب أو تضيع بمرور الوقت ، وفرضت عليه علاقاته الاجتماعية ضرورة وجود مكاتبات يتواصل بها مع الآخر أو يسجل فيها ما يريد ، فوضع لنفسه رموزًا تصويرية تذكره بما قد ينساه ، وكانت هذه الرموز الصورية موافقة لأعيان الأشياء التي تتعلق بها ، فهذه الصور والأشكال ترتبط بما يراه الإنسان في الطبيعة ، فهي رموز حيوانات وطيور وأعضاء جسم الإنسان ، كما اضطر الإنسان إلى تجسيد ما يريد الحديث عنه بالصورة المنحوتة على الجدران والحجارة ، فكتب الإنسان الأول تاريخه مصورًا ثم وضع إلى جوار الصور بعض الرموز التي تكمل الصورة ، ثم تطور هذا النظام التصويري إلى مرحلة أخرى ، وهي استخدام الرموز ، فوضع رموزًا كثيرة ومتعددة شديدة التعقيد ، ثم هذبها واختصرها في رموز قليلة ، حتى وصلت الرموز

الصوتية إلى شكل نهائي ، وهذا الجهد الكبير ليس من صنع فرد أو جماعة بل من صنع الحضارة الإنسانية على امتداد تاريخها ، وسوف نتناول مراحل تاريخ الكتابة بإيجاز لنتعرف منه على تاريخ لغتنا العربية وخطها .

ويرى جلب Gelb أن الكتابة من حيث كونها نشاطًا بشريًا عامًا ، وصلت إلى الطور الألفبائي على مراحل متلاحقة منطقيًا بحيث تكون كل مرحلة ناتجة عن المرحلة التي سبقتها وتسلمها إلى المراحل التالية ، وقد مرت الكتابة بالمراحل التالية:

أولا: المرحلة التصويرية Pictograms: وهي التي جسدت المعاني التي تعبر عنها والأجسام بالصور التي تصفها على هيئتها في العالم الخارجي أو في الذهن .

ثانيًا: المرحلة السابقة على الكتابة وتشتمل على نوعين:

أ- الوسيلة الوصفية التصويرية ب- المرحلة الاستذكارية .

ثانيًا: المرحلة الكتابية الحقيقية ، أي الكتابة الصوتية ، وهي بدورها ثلاثة مراحل متتالية:

أ- طور الكلمية Logograms . ب- طور المقطعية الخالصة Syllabic writing .

جـ- طور الألفبائية .

والمرحلة التصويرية لا تقصد إلى التعبير الفني ، بل تتمثل فيها الأفكار الرئيسية في الكلام بواسطة رسوم معبرة تخلو من التفاصيل الصغيرة ثم اتخذت هذه الصور شكلاً رمزيًا يعبر عن الفكرة Ideograms ، لكنها لا تعبر عن صوت .

والمرحلة الوصفية التصويرية التي تناولت وصف التفاصيل ، فجسدت المعنى والأفكار تجسيدًا واقعيًا محاكية حقيقة موضوع الأشياء التي تتحدث عنها . وهي التي سبقت الكتابة ، ومهدت اكتشافها . وهي المرحلة الاستذكارية التي استخدمت علامة أو رموزًا لتحديد شخص ما أو للتعبير عن حكمة أو مثل مأثور [1]. والرمز فيا ليس إلا إشارة

---

(1) الكتابة العربية والسامية ص68 ، 69 .

استذكار فقط.

وهاتان المرحلتان ليستا كتابية بالمعنى الصحيح ، فالكتابة تستعمل بالتواضع أو اتفاق الناس حول قيمتها الصوتية وقراءتها ، ولكن هاتين الطريقتين السابقتين تحملان اختلاف وجهات النظر واختلاف التفسير . والكتابة تقتضي أن تتفق المجموعة أو أصحاب اللغة على كتابة أشكالها وقراءتها ، وقد تطلب هذا أن تكون الكتابة صوتية أو وتعبر عن الصوت المنطوق ، ومن ثم رمز لكل صوت منطوق برمز كتابي يرمز إليه في الخط المكتوب ، فالكتابة تختزل الأصوات الكلامية ، ويمكن استنطاقها مرة أخرى من خلال قراءتها ، فالكتابة وعاء الكلام المنطوق .

مرحلة الكتابة الصوتية: وتقسم على الأطوار التالية:

أ- طور الكلمية Logograms: وهي التعبير عن الكلمة الواحدة ، سواء أكانت من مقطع واحد أو أكثر بشكل واحد ، وهذا مستعمل في السومرية وتسمى كتابتها المسمارية والمصرية ، والحبشية ، والصينية ، ونظام الكتابة الصيني يستعمل الكتابة للإشارة إلى معاني الكلمات وليس للإشارة إلى أصوات.

ب- طور المقطعية الخالصة Syllabic Writing: وهي التعبير عن مقطع صوتي واحد سواء أكان كلمة قائمة بذاتها أم جزءًا من كلمة بشكل واحد ، وهذا مستعمل في الإيلامية Elamite وفي السامية (الغربية) واليابانية .

ج- طور الألفبائية Alphabetic Writing ، أي التعبير عن كل صوت في اللغة ، سواء أكان صامتا أو صائتا بشكل واحد، فالرموز تعبر عن الأصوات المفردة ولا تعبر عن المقاطع في النظام الألف بائي.

ويرى Gelb أن اليونانيين أول من طور الكتابة إلى هذه الطريقة وتبنته أمم أخرى مثل الرومان والهنود. ويرى أن الساميين أدخلوا هذا النظام على كتابتهم بإضافة رموز الحركات إلى الرسم ، فالكتابات السامية كالعبرية والآرامية والعربية أصبحت كتابات ألفبائية عندما أدخلت نظاما متكاملا من الأشكال التي تعبر عن الصوائت (رموز الحركات) ، والفضل في

هذا – كما يقول – يعود إلى اليونانيين الذين طوروا الأبجدية السامية بإدخال رموز للصوائت ، ولولا النظام الذي أدخل لاحقا لما أصبحت هذه الكتابات ألفبائية ، وقد أدخل المسلمون بعض التعديلات على الأبجدية القديمة ، ليتمكنوا من قراءة ما يكتبون قراءة صحيحة ، وقد بدأ هذا التعديل في رسم المصحف ، بإضافة النقط ثم الشكل إلى الرسم .

ويتبين من هذا الرأي أن تطور الكتابة بدأ مع المصريين (المقطعية الكلمية) ، فالساميين (المقطعية الخالصة) فاليونانيين (الألفبائية) . وهذه الآراء التي تبناها Gelb تعرضت للنقد ، لأن اللغات التي استشهد بها لم تلتزم بشكل كتابي موحد ، والسامية ليست مقطعية بل ألفبائية وقد أدخل المسلمون على الرموز الكتابية التي يرمز منها كل حرف لصوت منفرد برموز الحركات القصيرة، ورمزوا للأصوات الصائتة الطويلة برموز كتابية فصار النظام الكتابي العربي مقطعياً[1] .

أصل الكتابة السامية

يرى بعض العلماء أن الخط الهيروغليفي المصري القديم هو أصل الألفباء ، وذلك إثر اكتشاف نقوش مكتوبة يشبه بعضها الرموز الهيروغليفية ، ويقترب بعضها من رموز الألفباء السامية ، وأن لغتها على الأرجح سامية ، وقد أحدث هذا الاكتشاف اهتمام علماء اللغة ، مما دفعهم إلى النظر من جديد في كثير من آرائهم حول أول من استخدم الرموز الكتابية وأصل الأبجدية .

وقد قامت بعثة غربية بالتنقيب في خرائب معبد هاتور في سرابيط الخادم الواقعة في الجزء الجنوبي من شبه جزيرة سيناء ، في (1904م 1905) فعثرت على أحد عشر نقشًا مكتوبة برموز غير معروفة كتبت حوالي 1500 ق.م ، وتحتوي هذه النقوش على نظام كتابي ثابت ، ولا ترتبط بنظام كتابي محدد ، فهي تكتب من اليسار إلى اليمين على خلاف السامية ومعظم الكتابة المصرية ، ويرجح أن الذين كتبوا هذه النقوش ساميو الأصل ؛ لأن لغة النقوش سامية أو قريبة منها ، وتبين منها تأثرهم بالمصريين وخاصة في أسماء الأعلام.

---

(1) نفسه .

وتضاربت الآراء حول أصلهم فرأي يرى أنهم الهكسوس الذي حكموا مصر، وآخر يرى أنهم مهاجرون من فلسطين كانت تستخدمهم السلطة المصرية للعمل في مناجم سيناء .

ويرجح أن عدد حروفها سبعة وعشرون حرفًا ، وتسمى بالنقوش السينائية sinaitic أو السنائية الأم Proto sinaitic . وتضاربت الآراء حول نسبتها إلى الهيروغليفية أو السينائية ، وهل هي مقطعية أم ألفبائية ، ويرجح أنها ألفبائية لا مقطعية حيث إن المقطعية تزيد في حروفها عن ذلك .

ويرى رأي آخر أن الخط المسماري الذي اتخذه الأكديون بعد هجرتهم إلى العراق ، وكتبوا به لغتهم هو أصل الألفباء السامية ، ويحتج هذا الرأي بأن الألفباء السامية مزيج من عناصر ثلاثة هي المصرية والبابلية وعنصر مخترع ليس مأخوذًا من غيره .

وهذا الرأي غير مقبول لأن الكتابة الفينيقية ألفبائية والمسمارية مقطعية ، كما أن عدد رموز الفينيقية اثنان وعشرون ، بينما تستخدم الكتابة المسمارية مئات الرموز ، ففي الآشورية نحو 570 شكلاً بني مقطع وعلامة مخصصة . والكتابة المسمارية كانت تستعين بالعلامات التصويرية Ideograms Logoroms أي رسم صورة الشيء بدلاً من الرمز بكلمة مكتوبة على خلاف الكتابة الفينيقية . ويستبعد أن تكون الكتابة المقطعية السومرية الأكادية قد تطورت إلى كتابة ألفبائية كالتي استعملها الفينيقيون ، لأنها ظلت كما هي رغم تاريخها الطويل في بلاد ما بين النهرين ، ولم يحدث أن تطورت كتابة مقطعية إلى ألفبائية [1] .

وهناك رأي آخر – ضعفه العلماء – يرى أن الألفبائية السامية مأخوذة من جزيرة كريت (قريت) حيث قام الفلسطينيون بنقلها من كريت إلى فلسطين في القرن الثالث عشر (ق.م) وأخذها الفينيقيون عنهم .

وهذا الرأي غير مقبول أيضًا ؛ لأن تاريخ الألفباء الفينيقية يرجع إلى ما قبل تاريخ الكتابة الكريتية ، ولا تتوفر الأدلة الكافية حول هذا الادعاء [2] .

---

(1) ارجع إلى الكتابة العربية والسامية ص29 وما بعدها .

(2) الكتابة العربية والسامية ص34 وما بعدها .

وهناك آراء أخرى ترى أن السامية جاءت من الأبجدية القبرصية ، وآخر يرى أنهم أخذوا أبجديتهم عن الحثيين بأسيا الصغرى ، وهي رموز تشبه الهيروغليفية ، تحتوي على عدد من العلامات التصويرية Ideogroms والعلامات المخصصة determinative وهذا الرأي هو الآخر غير مقبول [1].

وذهبت جماعة من العلماء إلى أن الكتابة المصرية القديمة أصل الألفباء الفينيقية ، ومعظمهم من المستشرقين ، وعزوا هذا الرأي إلى مصادر يونانية قديمة ، وإلى الكشوف الحديثة ، وقد كان فك رموز الهيروغليفية في القرن التاسع عشر سببًا في زيادة هذا الاعتقاد ، فقد رأى شامبوليون Champollion أشكال الفينيقية منتزعة من الكتابة المعروفة بالهيروغليفية [2]. وهذا الرأي غير مقبول أيضًا بسبب اختلاف طبيعة الكتابتين وعدد كل منهما .

ولكننا في النهاية نقول: إن عامل التأثير وارد بين اللغات سواء تعاصرت أو سبقت لغة منها الأخرى ، ما دام هناك احتكاك مباشر ، ولا نستطيع أن نزعم أن لغة معينة أخذت طريقة كتابتها من لغة أخرى دون حجة تلزمنا بذلك ، وما قيل حول أصل الكتابة الفينيقية مبني على الاجتهاد أو ضروب الظن ، ولكننا لا نستطيع أن ننكر تأثرهم بثقافة من احتكوا بهم احتكاكا مباشرًا ، وقد يكون من أثر هذا الاحتكاك مع أمة ذات حضارة ولها طريقة كتابية . ومن المسلم به أن الأبجدية الرمزية التي ترمز إلى الأصوات المنطوقة ، والتي تعددت في عصرنا حسب تعدد اللغات هي صورة مبسطة ومتطورة عن مراحل سابقة كانت أكثر تعقيدًا من ناحية الشكل والعدد وطريقة الكتابة ، وأن الكتابة الأولى لم تكن تعبر عن أصوات اللغة بشكل دقيق ، والتاريخ يحتفظ لنا بنماذج من ذلك ، ونقل لنا صور بعض الرموز الكتابية ومراحل تطورها وما زالت تلك الرموز حتى الآن عرضة للتغيير والتطوير والتعديل حسب ما تتطلبه اللغة التي تتخذها خطًا لها .

إننا في النهاية نصل إلى أن الحضارة الإنسانية جميعها شاركت بنصيب يتفاوت مع ما

---

(1) نفسه ص41 .

(2) الكتابة العربية والسامية ص42 وما بعدها .

قامت به غيرها في صنع الحروف الكتابية ، فقد قامت الجماعات اللغوية باستعارة الخطوط ثم قامت بإحداث تعديلات فيها بزيادة أو بنقص حتى تتكيف الكتابة المستعارة مع اللغة التي دخلت إليها ، فالحروف الكتابية تأثرت بطبيعة اللغة التي اتخذتها خطًا لها .

ولا نتسطيع أن نضع تصورًا دقيقًا لما كانت عليه اللغة الأولى ، وأن نعرف ما هي ، ولا أن نعرف مصدر الكتابة الأولى ، وأول من كتبها لعدم وجود أدلة كافية يثق في صدقها العلماء ، فكثير من الأمم ادعت لنفسها أن لغتها هي اللغة الأم مصدر اللغات ، وأنها أفضلها على الإطلاق ، وأنها أقدم لغة ، وأنها أيضًا أول من وضع الخط ، وهؤلاء يعوزهم دليل صادق يؤكد حقيقة ادعائهم . وزعم بعض أهل اللغة أن أول من استخدم القلم آدم ، وهو أول من تعلم الخط ، وقيل أكثر من هذا ، ولكن لا حجة فيما يقال ، ونضرب عن هذا صفحًا لعدم جدواه .

إن معظم آراء العلماء تتفق على أن الساميين هم أول من وضعوا نظامًا كتابيًا ميسرًا أخذت عنه الحروف الكتابية العالمية التي مازالت يستعمل بعضها حتى الآن ، والبعض الآخر متطور عن النظام الذي ابتكره الساميون ، وهذا الرأي لا ينفي وجود محاولات سابقة تجاه تبسيط الكتابة وإزالة ما بها من صعوبات تعوق حركتها في الحياة .

وتوجد قضية خلاف أخرى ، وهي: من هم أول من ابتكر النظام الكتابي الأبجدي من الساميين؟ قد يكون الجواب معروفًا لدى كثيرين ، وهو: الفينيقيون هم الذين ابتكروا هذا النظام الكتابي الميسر . وهذا جواب فيه نظر ، فالفينيقيون هم الذين نشروا هذا النظام الكتابي ، ونقل عنهم بحكم طبيعة نشاطهم التجاري مع المدن الساحلية التي تقع على البحر المتوسط جنوب أوربا ، وشمال أفريقيا ، ولكنهم ليسوا بمبتكري هذا النظام ، بل جيرانهم الشماليون وهم الأوجاريتيون (نسبة إلى مدينة أو جاريت أو أجريت) فهم الذين قاموا بإدخال تعديل كبير على الرموز الأكادية الآشورية التي بلغت المئات من الرموز المسمارية (نحو 750 رمزًا وعلامة تقريبًا) .

فقاموا بوضع نحو 27 رمزًا للأصوات الكلمية ، وهو عدد قريب جدًا من الأصوات التي حددها علماء الأصوات في اللغات العالمية ، فالعربية على سبيل المثال تحتوي على (29)

صوتا بالإضافة إلى ستة أصوات أخرى أضافها سيبويه تنتج من تأثير الأصوات في بعضها وتجاورها وعدها فروعًا وقال: «وأصلها من التسعة والعشرين، وهي تستحسن في قراءة القرآن والأشعار» وهي النون الخفيفة، والهمزة بين بينَ، والألف التي تمال إمالة شديدة ، والشين التي كالجيم ، والصاد التي كالزاي، وألف التفخيم في قول أهل الحجاز: الصلاة والزكاة والحياة . وذكر أصوات أخرى لا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر[1] ، ولكن الأصوات الأساسية الصامتة في العربية لا تتجاوز 28 صوتًا صامتًا بالإضافة إلى ثلاثة صوائت ، وهي أصوات المد أو اللين (ا ، و ، ى) ويرمز للأصوات العربية بتسعة وعشرين حرفًا ، وعدد حروف العبرية القديمة 22 حرفا ، وكذلك السريانية ، والفينيقية ، وهذه لغات عاصرت الأوجاريتية الكنعانية. ويرجع إلى الفينيقيين الفضل في نقل هذا الخط إلى مناطق أخرى ، فيسرت له مهمة انتشاره بين الأمم المجاورة والأمم البعيدة لسعة نشاطهم التجاري.

وقد أخذ العرب الأبجدية من خطوطها اللهجات الآرامية (التدمرية ، والنطبية) ، وكان عدد رموزها اثنين وعشرين رمزًا ، وهي على الترتيب التالي: أبجد ، هوز ، حطي ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، وأضاف إليها العرب إليها ستة حروف من جنس بعض حروفها وهي (ثخذ ، ضظغ) لترمز إلى بقية أصوات العربية ، وتقابلها (بجد كپت) في الساميات ، فلهذه الأصوات نطق آخر على الترتيب التالي: ڤ ، غ ، ذ ، خ ، ف ، ث .

لقد انتشر النظام الكتابي بين سكان الشام والعراق من الساميين ، ولكن وصل هذا الخط إلى العرب في مرحلة متأخرة عاصرت ظهور الإسلام ، وهذا لا يعني أن العرب لم يعرفوا الخط ، فقد استخدم العرب خطوطًا أخرى عرفت بخط المسند الذي وضعه أهل اليمن ، وانتشر بين الساميين الشماليين بهجرة الجنوبيين إلى الشمال ، ولكن أعني بالخط الذي تعلمه العرب في مرحلة متأخرة في النظام الكتابي الذي ما زال مستعملاً حتى اليوم ، وقضي على الخطوط الأخرى السامية الجنوبية والشمالية وتعلمه منهم الذين يسكنون شمال منطقة الجزيرة مجاورين للفنيقيين والعبريين والآراميين ، وكتب لهذا الخط البقاء بفضل رجال

---

(1) ارجع إلى الكتاب جـ4/ 432 .

تعلموه من قريش في فترة ظهور الإسلام ، فكتبوا به القرآن الكريم ، وأصبح رسمًا للمصحف الشريف ، واستخدمته الدولة الإسلامية في دواوينها رسميًا بعد أن عربت دواوين الشام والعراق في عهد عبد الملك بن مروان . فقد كان هذا الخط مستعملاً في كافة المعاملات اليومية ، فقام علماء المسلمين بإدخال تعديل عليه ، وتعددت خطوطه ، وأصبح فناً من الفنون التي باري فيها العرب غيرهم .

ويتبادر إلى الباحث سؤال مهم هل الكتابة العربية مقطعية أم أبجدية ؟

رأى بعض الباحثين في العربية أن الكتابة العربية كتابة مقطعية تسجل المقاطع الصوتية فقط عن طريق تخصيص علامة (حرف) لكل مقطع ترمز إليه . ورأي فريق آخر أن الكتابة العربية ليست مقطعية ، بل تمثل الصوامت فقط دون الصوائت .

ونود في البداية أن نبين معنى مقطع في اللغة: المقطع هو أصغر وحدة صوتية في تركيب الكلمة ، له حد أعلى أو قمة إسماع ، وله نهاية صوتية يمكن ملاحظتها بتقطيع الوحدات الصوتية للكلمة ، فهو يشبه الفواصل الداخلية في الكلمة ، ويتكون المقطع في اللغة العربية من وصوتين على الأقل: صامت (صوت مثل ب ، ج ، ح) يليه صائت (حركة طويلة أو قصيرة) والصوت الصائت هو قمة Peak المقطع ، ولا يبدأ المقطع في العربية بصوت صائت (حركة) ، ويمكن توضيح هذا من خلال كلمة: «كَتَبَ» تحتوي هذه الكلمة على ثلاثة مقاطع : صوت صامت (ك) وحركة (الفتحة) + صوت صامت (ت) وحركة (الفتحة) + صوت صامت (ب) وحركة (الفتحة) ، ونلحظ أن الخط وضع رمزا للصوت الصامت ، واكتفى بوضع فتحة على الصامت للدلالة على الصائت القصير .وهناك سؤال يطرح نفسه: هل تعد رموز الحركات القصيرة (الضمة والفتحة والكسرة) بديلا للرموز الخطية التي ترمز لها في الكتابة العربية ، فهل الكتابة العربية بهذا تعد مقطعية أم أن هذه الرموز الإضافية لا تدخل في الوحدات الكتابية ، فتعد العربية ليست مقطعية ؟ .

أرى أن نظام الكتابة العربية قد عبر عن الحركات الطويلة بالحروف (ا ، و، ي) بيد أنه لم يرمز للحركات القصيرة بحرف كتابي لئلا يزداد عدد حروف العربية، ويزداد حجم كلماتها فكل حرف في العربية تصحبه حركة أو سكون، وهذا يعني أن الحروف ستزيد على عددها

أربعة حروف أخر إضافة إلى رمزين جديدين للواو والياء الممدودتين ورمزين للساكنتين القصيرتين في مثل: قَوْل، بَيْت ، ورموز أخرى للظواهر الصوتية ، ولكن العلماء اكتفوا بالحركات التي تزاد في الحروف لتعبر عن هيئة الحرف في الأداء، ويتعرف المتكلم على المقطع من خلال الأداء الصوتي، ويستطيع أن يتعرف عليه من خلال الكتابة المشكولة (المضبوطة) نحو: «عَادِلْ» يتكون من مقطعين «عَا» و «دِلْ» والأول طويل مفتوح، والثاني قصير مغلق، وقد تعرفت عليهما من خلال حرف المد الألف والحركات، وهذا يعني أن نظام الكتابة العربية مقطعي.

ويعد الإغريق هم أول من قاموا بتحليل أصوات اللغة ، فقد بدءوا بتحليل أصوات اللغة ، وبلغوا في تحليلهم الصوتي مرحلة ما يسمى «التقطيع الثاني» ، والتقطيع الأول تقطيع الكلمة (اللفظة) إلى المقاطع الصوتية التي تتالف منها ، أما التقطيع الثاني ، فيقصد به تمييز الوحدات الصوتية الأولية التي يتألف منها المقطع الصوتي [1].

وهذا لا يعني أنهم سبقوا غيرهم في وضع الرموز المقطعية ، فقد سبقهم في هذا الأكاديون والآشوريون الذين وضعوا رموزًا كثيرة لتعبر عن الصوامت وحركاتها ، فقد رمزوا لكل صامت في حالة من حالات نطقه برمز خاص يرمز له ، فالخط المسماري سجل علامات الإعراب الأصلية والفرعية أيضًا ، لكن الفينيقيين قاموا بتجريد الرموز الكتابية من العلامات التي تدل على حالاتها النطقية ، واكتفوا بالرمز إلى الصامت فقط بحجة تيسير الكتابة ، فقام الإغريق بإضافة رموز بديلة للحركات في الأبجدية التي تعلموها من الفينيقيين لتلائم هذه الرموز لغتهم .

والأبجدية الحقيقية هي التي تشتمل على إشارات متميزة (حروف) تفيد الأصوات الصامتة والصائتة على حد سواء ، مثل الأبجدية الحبشية القديمة التي تستخدم في كل رمز علامة تدل على أدائه في حالات الضم، والفتح ، والكسر والسكون ويختلف رسمه مع الحركات الطويلة أيضًا، وأحيانا يختلف رسم الحرف فيها في كل حالة من هذه الحالات ،

---

(1) ارجع إلى: الدكتور جعفر دك الباب ، الساكن والمتحرك . في علم اللغة . اللسان العربي ، عدد 20 ، 1403 ، 1983م .

فأصبح تعليم هذه الأبجدية صعبًا لكثرة رموزها التي تبلغ نحو 182 رمزًا ، فالحبشية تتكون من ستة وعشرين حرفًا ويختلف الحرف باختلاف الحركة، وفيها ستة حركات وسكون.

والأبجدية الفينيقية والأبجدية العربية (التي أخذت عنها في أرجح الأقوال) ليست من هذا النوع الذي يسجل الصامت والصائت أو الرمز إلى الصوت ووضعه في الأداء من ناحية الضم ، والفتح والسكون والكسر ، ومن ثم استحدث علماء العربية الشكل في مرحلة مبكرة من استخدام الكتابة لما وجدوا الحاجة إليه ملحة في قراءة المصحف الشريف قراءة صوتية صحيحة دون لحن ، لأن الرسم الذي كتب به لم يضع رموزًا لطريقة القراءة أو الأداء. وقد اتخذ علماء العربية رموزًا كتابية للحروف الصائتة (ا ، و ، ى) وهي حروف مد ساكنة ، وجعلوا هذه الرموز في حروف الكتابة ، فعبروا بذلك عن الصوائت الطويلة، نعرف بها المقطع االطويل، بيد أن الحركات القصيرة تكثر في العربية ، فلكل حرف حركة تصاحبه فزادوا علامات تضاف إلى الحروف تعرف بالشكل في نحو: فَرِحَ وظَرُف، فاكتمل بها النظام المقطعي.

والكتابة العربية القديمة المجردة ليست مقطعية ، لأنها تسجل الصامت فقط ووضعت رموزًا ترمز إليه دون الصوائت التي رمزت لها في الإسلام بعلامات مستقلة فوق الرمز (الحرف) أو تحته . ولا يعد الشكل في العربية جزءًا من الكتابة أو الأحرف الكتابية ؛ لأننا لا نستعين به إلا عند الضرورة لتوضيح النطق بالكلمة حتى لا تلتبس بنطق آخر له معنى آخر ، مثل: جَنَّة ، وجُنَّة ، وجِنَّة .

ويعد النظام الذي وضعه الإغريق في تمييز الوحدات الصوتية التي يتألف منها المقطع الصوتي ، نظامًا مقطعيًا ؛ لأنه يشتمل على إشارات متميزة تفيد الأصوات الصامتة والصائتة ، فقد عمدوا إلى تدوين إشارات أخرى تفيد أصواتًا صائتة .

وإضافة الشكل إلى الحروف لا يعني قصور الكتابة العربية وعجزها عن التعبير ؛ لأن طبيعة لغة الإغريق أرشدتهم إلى ضرورة استكمال الأبجدية الفينيقية ، فاستخلصوا نظامهم الأبجدي في الكتابة من أسلوب الكتابة ، وكل لغة تعدل من رموزها الكتابية (الأبجدية) بقدر ما يكفي حاجتها في التعبير ، فالأبجدية الإغريقية تعجز عن التعبير بالعربية ، ولا تفي

بجميع أصوات العربية ، كما أن حجم الكلمة سيصبح كبيرًا إن كتب بأبجدية الإغريقية أو اليونانية أو غيرها من الأبجديات التي تعد امتدادًا لها ، وقد اضطرت الأمم الإسلامية التي استبدلت الأبجدية العربية بالأحرف اللاتينية إلى تعديل رموز الأبجدية اللاتينية وإضافة رموز أخرى إليها لتفي بمتطلبات اللغة التي ترمز إليها ، ولم يكن هذا الفعل حلاً رشيدًا في التعليم أو في مواكبة حضارة الغرب ، فلم يقدم هذا التغيير جديدًا ، سوى ما جلبه عليهم من التغريب وفقد الهوية ، وهدم معارفهم التراثية التليدة ولا حول ولا قوة إلا بالله!

إن الإغريق لم يغيروا من لغتهم لتساير الأبجدية التي اقتبسوها من غيرهم بل استخلصوا من الأبجدية التي استعاروها نظامًا أبجديًا جديدًا في الكتابة يفي بمتطلبات لغتهم ، ولم يبلغ بهم الحمق إلى تغيير لغتهم أو تقليد غيرهم في نظامهم الكتابي ، لقد كانت هذه الأمة المتقدمة أوعى كثيرًا من هؤلاء الذين تنكروا لدينهم وتراثهم ولغتهم ، فسعوا في هدمهم جميعًا ، وقد كان الإغريق أصحاب حضارة ، وهؤلاء ليسوا منها في شيء! .

وقد قام أسلافنا بإحداث تطوير وتغيير في الأبجدية التي نقلوها عن الأنباط أو عن الفينيقيين أو عمن أخذوا عنهم الكتابة، فقد نقل العرب عنهم بشكل غير مباشر عن طريق جيرانهم الأنباط الذين سكنوا أطراف الشام والعراق على حافة الصحراء .

ولم يرتكب هؤلاء حمقًا طائشًا ، فاستبدلوا لغتهم بلغة أمة متقدمة مثل الفرس أو الروم ، فقد أضافوا إلى الرسم النبطي الفينيقي ما يسد حاجة العربية في التعبير عن أصواتها ، فاستحدثوا الشكل ، وأعادوا تعديل رسم الحروف في الكتابة حتى صار رسمًا عربيًا خالصًا يخالف الرسم الأصلي الذي أخذ عنه كثيرًا من خصائصه ، فقد زادوا فيه رموز الأصوات الأسنانية (ث، ذ، ظ)، ورموز الأصوات (ض، غ، خ) ، ورموز أصوات المد الطويل (ا، و، ى) وزادوا الحركات والنقط، فأصبح نظام الكتابة الجديد مقطعيًا .

ولم يدع الإغريق أنهم وضعوا الكتابة ، بل عزوها إلى الفينيقيين الذين نقلوا عنهم أبجديتهم مباشرة دون وسيط ، وقد كان بين العرب والفينيقيين وسيط ، وهم الأنباط الذين ورثوا الفينيقيين في منطقة غرب الشام من الناحية الجنوبية (لبنان وفلسطين والأردن) .

ويرجع الفضل إلى الإغريق في استحداث نظام كتابي جديد متطور ، فقد انتقلت

الأبجدية الفينيقية على أيديهم من رموز مجردة من الصوائت إلى بنية لغوية ذات خصائص تتكيف مع مقتضيات بنية اللغة الإغريقية المتميزة جذريًا عن بنية الفينيقية ومثيلاتها من اللغات ، فقد حفظ النظام الجديد الذي استحدثه الإغريق في الأبجدية كيان اللفظ الصوتي ، ويستطيع القارئ أداءه دون لحن من خلال رموزه الكتابية الأمر الذي تعجز عنه كثير من الأبجديات التي لا تحفظ أداء اللفظ صحيحًا ، ومن هذه الأبجديات الأبجدية العربية مجردة من الشكل ، فلفظ «الجنة» غير مشكول ، يحتمل من ناحية الخط الجنان التي يرفل فيها المؤمنون ، والجنون الذي يصيب العقل ، والجن ، والفرق الجوهري بين النظامين الكتابيين بين الرموز الفينيقية والعربية والرموز الإغريقية أن البنية الفينيقية والعربية تتميز بأن أصل الكلمات فيها تحدد على أساس الوحدات الصوتية التي يتألف منها الأصل ، دون الاكتراث بوصف كل مقطع منها (قصير أم طويل ، مفتوح ، أم مغلق) ودون الاكتراث بتحديد نوع الصوت الصائت الذي يشتمل عليه المقطع (فتحة ، أو كسرة ، أو ضمة ، أو ألف المد ، أو ياء المد ، أو واو المد) .

وكل مقطع صوتي يشتمل بالضرورة على صوت صائت ، مهما كان وصف المقطع ، أو نوع ذلك الصائت ، ويشتمل كذلك على صوت صامت أو أكثر تبعًا لوصف المقطع: مفتوح أم مغلق ، وهذا يستوجب في كل نظام وضع رموز تشير إلى جميع الأصوات الصامتة التي تدخل في المقاطع الصوتية التي تتألف منها الكلمات ، وهذا يتطلب أيضًا وضع رموز تشير إلى الأصوات الصائتة ، وتحدد موضعها من المقطع ، وتبين وصفها ، ونوعها (طويلة ، أو قصيرة) ويمكن معرفة نوع الصائت استنادًا إلى الخصائص البنيوية التي تعكس قواعد الصرف في اللغة مثل: قائل: قا: صامت + صائت طويل ، (مقطع طويل مفتوح) ، ئِلْ: صامت + صائت قصير + صامت ساكن (مقطع قصير مغلق) .

والبنية الإغريقية تختلف عنها ، فأصل الكلمات فيها لا يمكن تحديده فقط على أساس المقاطع الصوتية التي يتألف الأصل منها ، بل يتوجب لتحديد بيان وصف كل مقطع منها وتحديد نوع الصوت الصائت الذي يشتمل عليه المقطع ، ولهذا دونت الكتابة الإغريقية إشارات تفيد جميع الأصوات الصامتة ، وإشارات أخرى تفيد جميع الأصوات الصائتة التي

تدخل في المقاطع المكونة لأصل الكلمات ، فوضعت رموزًا كتابية أو حروفًا تشير إلى الصوائت ، وسارت على نهجها نظم الكتابة التي أخذت عنها مثل: الإنجليزية التي ترمز إلى الصوائت بـ: a, e, o, u, i وتسمى الحروف المتحركة وما سواها ساكن .

والكتابة الفينيقية (وكذلك النبطية التي نقل عنها العرب خطهم) لا تقوم على تدوين المقاطع بوضع رموز تشير إلى الصامت والصائت ، ولم تخصص حروفًا للصوائت في كل رمز صامت ليرمز إلى نوع الحركة أو الصائت أو وصف المقطع ، وقد سد هذه الفجوة الإغريق عندما اقتبسوا الأبجدية الفينيقية ، فوضعوا رموزًا للصوائت مثلما وضع الفينيقيون رموزًا للصوامت ، فاكتمل الأداء الصوتي في الرسم الكتابي ، ولكن العربية تأثرت في نظامها الكتابي بالنظام النبطي الذي نقل عن الفينيقين ، فخلا الخط العربي في بدء استخدامه من رموز الصوائت ؛ فقد كانت أبجدية مجردة من الحركات القصيرة أو الطويلة ، ولم تك منقوطة .

فليست هناك رموز للأصوات الصائتة في الخط العربي القديم ، ثم ظهرت الحاجة إليه ،فظهر رمز الفتح الطويل الذي يسمى ألفًا (خط قائم دون رأس العين أو الهمزة) ويتوهم كثير من أبناء العربية حديثًا أن الألف والهمزة حرفًا واحدًا لتشابه رسم الهمزة المفتوحة التي تكتب على ألف هكذا «أ» مع رسم الألف «ا» وبينهما فرق كبير في النطق ، وتناولت هذا في كتاب «مبادئ تعلم اللغة العربية» [1] .

ولكن العربية لا تشير إلى الحركات القصيرة (الفتحة ، الضمة ، الكسرة) برموز أبجدية بل بعلامات توضع أعلى الحرف أو أسفله واللغة العبرية هي الأخرى لا تستخدم رموزًا أبجدية تشير إلى الصوائت الطويلة ، بل تستخدم ما يطلق عليه في العربية (الشكل أو التشكيل) للدلالة على الصائت القصير والطويل ، وكذلك السريانية .

---

(1) قيل إن رمز الألف (ا) في الألفبائية العربية كان في الأصل رمز الهمزة ، ولم يكن للألف رمز ، ولكن الخليل جعله رمزا للألف ، واتخذ للهمزة رمزا جديدا (ء ، أ ، ؤ ، ئ) وقد عالجت هذا الموضوع في كتابي «مبادئ تعلم اللغة العربية»، دار النشر للجامعات .

وما زالت هنالك بقايا من الرسم القديم لا تضع رموزًا أبجدية في الرسم الكتابي للصوائت ، والرسم المصحفي يضع للفتحة الطويلة (الألف) علامة صغيرة تشبه الألف في الرسم للدلالة عليه ،وكذلك في بعض المواضع التي ينطق فيها الكسر الطويل أو الضم الطويل . وهذه العلامات لا تعد جزءًا من الرسم ، فقد أدخلت عليه في فترة لاحقة على زمن نسخ المصحف ، مثال: هذا ، هذه ، هؤلاء ، والأصل الصوتي هاذا ، هاذه ، هاؤلاء ، وما زالت هنالك بعض الكلمات التي لم يرمز فيها للألف ، مثل لفظ الجلالة «الله» الألف بعد اللام الثانية ، وقبل الهاء ، وكذلك «الرحمن» أصلها صوتيا: الرحمان . وإسحق: إسحاق ، ويس: ياسين .

وقد يحذف الرمز الكتابي عمدا لتكراره في مثل: رءوف ، داود ، وقد يبدل الرمز بغيره في مثل مسئول أصلها: مسؤول، ولا نجد كذلك رمزا كتابيا لنون التنوين في الكلمات النكرات: كتابٌ ، كتابٍ ، كتابًا (برمز مختلف خطًا) ، وحرف الجواب إذن ، وهو حرف يقع في صدر الكلام معه الجواب والجزاء لكلام سابق ، وتحذف النون أحيانا، ويعوض عنها تنوين «إذا» في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشعراء: 20] [1] .

ونجد في بعض الألفاظ رموزا كتابية ليس لها وجود في الأداء الصوتي للفظ ، كالألف الذي يوضع بعد واو الجماعة في مثل: قالوا ، ودوا ، ولم تكن هذه الألف في أصل الخط ألفا وإنما كانت خطا مائلا يوضع في حالة وجود كلمة مكونة من حروف غير متصلة مثل ردوا ، ودوا حتى لا تلتبس واو الجماعة بواو العطف ، أو تدخل في الخط في الكلمة التي تليها ، لأنها غير متصلة بما قبلها ، واصطلح علماء العربية على وضع رمز الألف بعد واو الجماعة في نهاية الكلمة ، ووضع على كل ألف زيادة صفرا مستديرا في الخط المصحفي مثل: «قالواْ» حتى لا تنطق صوتا ، ونجد كذلك بعض الأعلام الممنوعة من الصرف تنتهي بها ولا تنطق مثل:﴿ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ ﴿ سَلْسَبِيلا ﴾ ﴿ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ ﴾ [2]، ونجد أيضا الياء زيادة في الخط في مثل: ﴿ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ ﴾ .

---

(1) ارجع إلى: وصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي . دار ابن خلدون ص68 ، 69 .

(2) اختلف العلماء في الألف الزائدة في سلسبيلا، وقواريرا، فقيل زيدت لحفظ الحركة وقيل زيدت إتباعًا .

وتركت الصوائت من الخط المصحفي في مثل: «الكتب» [الكتاب] ، «داود» [داوود] ، «يلوُن» [يلوون] يحي [يحيى] «ولي الله» [وليى الله] . «إلفهم» [إيلافهم] «كتابه بيمينه» [كتابهو بيمينهى] .

وقد يعول في النطق على الحرف الملحق على الخط ، ويترك الحرف الذي جاء في الخط ، ومثال هذا: ﴿ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (تنطق الواو ألفا) و ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ تنطق الواو ألفا و ﴿ مَوْلَىٰهُ ﴾ ينطق رمز الياء ألفا ، وكذلك ﴿ ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ ، وكتب الخط على الأصل الذي جائت منه الكلمة، فالصلاة من صلو، والمشكاة من شكو ، ومولاه من ولي .

وقد يترك رمز صوت صامت مثل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ﴾ أصلها «ننجي»، وقد يبدل رمز الصوت برمز غيره الذي صار إليه مثل: ﴿ وَيَبْصُۜطُ ﴾ أصلها يبسط ، وكلمة «السراط» التي تكتب ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ تقرأ الزراط أيضًا عند بعض العرب [1] .

وقد يهمل الحرف في الوصل ، وينطق في القطع ، مثل : ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ وتنطق صوتيا في حالة الوصل: أنخير منه ، بإهمال الألف ، وكذلك قوله تعالى: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ ﴾ تنطق: ولاكنَّهو الله ، بغير ألف «نا» ، وقد وضع عليها في المصحف الصفر المستطيل [2] .

ويلاحظ اختلاف الحرف المكتوب عن الصوت المنطوق في الأفعال الآتية: سعىٰ، مشىٰ ، رأىٰ ، وفي الكلمات التالية: سلمىٰ ، خضرىٰ (ألف التأنيث المقصورة) . ويقال إنها كانت في الأصل تنطق ياء، ثم تطورت صوتيا إلى ألف ، وتنطق في بعض اللهجات ممالة بين الألف والياء أو تنطق ياء خالصة ، ورأى علماء الخط أن ما كان أصله ياء كتب بالياء وما كان أصله واوًا كتب بالألف نحو: قضى: يقضي، مضى: يمضي، ودعا: يدعو، ورجا: يرجو.

ويأخذ رمز الهمزة أشكالا مختلفة في الخط تبعا للحركة التي ينطق بها ، فالهمزة في حالة الفتح تكتب على ألف (أ)، وفي الضم تكتب على واو «ؤ» وفي حالة الكسر تكتب على ياء «ئ» .

---

(1) ارجع إلى إملاء ما من به الرحمن، للعكبري، جـ1/ 8 والمحتسب جـ1/ 41 والكشاف جـ1/ 21 .

(2) الصفر المستدير يوضع على الألف التي تلحق بواو والجماعة، والصفر المستطيل يوضع على الألف التي تهمل لترمز إلى حركة الفتح في مثل: «سلسبيلاْ» و«قواريراْ» .

وتوجد بعض حروف الهجاء التقليدية ترمز إلى صوتين، ومثال هذا رمز الواو (و) ورمز الياء (ى) فهما يرمزان إلى صامتين في مثل: ولد، يد، ويرمزان كذلك إلى صائتين، وهما واو المد في مثل: عليم وحكيم وشكور وغفور .

وترمز هاء التأنيث (المعقودة) في الخط إلى صوتين صامتين هما التاء المفتوحة (ت) والهاء (هـ) في مثل «رحمة الله» ينطق رمز تاء التأنيث كما ينطبق رمز التاء صوتيًا في حالة الإضافة والوصل، فهو في النطق رحمت الله، وقيل إن هذا هو الأصل، وينطق هاء في الوقف قال تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: 3] .

وهناك مشكلة أخرى في وضع الخط أن الرموز التي وضعت للدلالة على الحركات تشبه الرموز التي وضعت رموزا لأصوات وضعت للدلالة على صوت صامت نحو ياء المضارعة في يذهب، والياء في يَد وعيَال ومثلها الواو في وَلد وعوّاد ليستا صائتتين بل حرفين صامتين، ولكن استخدم كذلك للدلالة على الحركات الطويلة، في مثل سميع، وشكور، وأطلق عليهما حرفي المد والعلة واللين، وكان من الممكن استدراك ذلك في بدء استخدام الأبجدية الفينيقية في العربية، ولكن لم تكن هناك حاجة إلى ذلك لعدم شيوع الكتابة في أمة أمية لا تجيد النطق، ولها سليقة لغوية قوية ترتجل بها الكلام في الخطاب اليومي، وكانت العربية صافية نقية لا يشوبها اللحن أو الدخيل، فكان العرب يضبطون النطق بسليقتهم، فكان الخط رسمًا غير منقوط أو مشكول، ولم تحظ العربية بهذا النقاء كثيرا بعد أن خرجت من عزلتها في الفيافي إلى أمم لا تجيد الحديث بها، ففشي فيها اللحن، وفسد لسان بنيها بعد أن سكنوا الحضر، وخالطوا الأعاجم، هذا إلى جانب اللهجات العربية المختلفة، فأصبحت هنالك حاجة ملحة إلى وضع النقط والشكل، ويرجع الفضل في هذا التطور الذي لحق بالخط إلى القرآن الكريم، فالخطأ في القراءة، أو شيوع اللحن وقع أولا في قراءة القرآن الكريم، فقد تأوّل الشكل غير المنقوط على وجه من النطق في مثل «فتبينوا» قرأ بعضهم «فتثبتوا» ، لاحتمال الرسم العثماني هذين الوجهين ، فأدرك علماء العرب هذا، فوضعوا النقط، لئلا يقع التصحيف والاحتمال في القراءة .

واحتمل لفظ «ملك» مجردا من الشكل ودون رمز الألف (حركة المد الطويلة في مالك) وجوه القراءات التي صحت عن النبي ﷺ وأجازها فأجاز القراء أن يكون مالكا (اسم فاعل)، وأن يكون مَلِكا (مفرد ملوك)، أو أن يكون مَلَكَ (فعل ماض) وعلى هذا أتت وجوه القراءات فيه مع تزكية من قرأ «مالك» لعمومه على المعاني السابقة، فهو سبحانه وتعالى مالك الملك ، وقد احتمل الرسم المجرد بعض وجوه القراءات الصحيحة، واحتمل وجهًا واحدًا بعد وضع النقط والشكل .

ويمكن تلخيص سمات نظام الكتابة العربية فيما يلي:ـ

(1) يقوم نظام الكتابة العربية على تدوين رموز (حروف) تشير إلى الأصوات الصامتة التي يتألف أصل الكلمات منها ، وهي رموز مجردة من إشارات تشير إلى ما يطرأ على كل رمز من أوضاع مختلفة النطق ، فليس في نظام الكتابة العربية رموز أساسية تمثل الأصوات الصائتة القصيرة (الحركات: الضمة ، الفتحة ، الكسرة) التي توضع في الصوامت (عدم الحركة) ، وقد استحدث علماء العربية في فترة لاحقة رموزا مستقلة لا تدخل في صميم العربية توضع أعلى الحرف الصامت ، وأسفله تشير إلى وضع الضم ، والفتح، والكسر ، وهو ما يعرف بالشكل ، وقد استخدم في بادئ الأمر في الرسم المصحفي ثم عمم في العربية وطرأ تعديل فيه ، ويطلق على الكلمات التي صاحبتها الحركات القصيرة مشكولة أو مضبوطة ومعجمة .

(2) كانت الأبجدية العربية في بادئ الأمر متأثرة بالأصل الذي جاءت منه مجردة من النقط والشكل ، فاستحدث العلماء الإعجام أو النقط ، فوضعوه على الحرف أو تحته لئلا يلتبس بغيره ، وهذه العلامات تميز الحروف المتشابهة مثل: ب ت ث ، ج ح خ ، د ذ ، ر ز ، س ش ، ص ض ، ط ظ ، ع غ ، ف ق ، فالأبجدية الأم لم تك منقوطة أو معجمة ، ومن ثم أطلق على الأسلوب الذي كتب به مصحف عثمان رضي الله عنه الرسم العثماني ، لاختلافه في الكتابة عن النظام الذي استحدثه علماء العربية لضبط الخط العربي وتدعيمه ببعض الزيادات ليستطيع مواجهة كافة العقبات التي تتصدى لها اللغة العربية ، ومنها اللحن ، والدخيل ، وانتشارها بين الأعاجم ممن لا يحسنون نطق

العربية ، ويطلق على الحروف التي توضع عليها نقط أو تحتها حروف معجمة ، لتميزها عن غيرها التي تشبهها ، وكان الكتاب يصفون الحروف ، فيقولون الجيم المعجمة ، والحاء المهملة .

(3) تطلب النظام الأبجدي وضع رمز يرمز إلى السكون (عدم حركة الصوت الصامت) ليبين نوع أداء الصوت ، وقد أصبح ممكنا هذا بعد وضع علامات الشكل في الكتابة التي ترمز إلى الحركات ، فأضيف رمز جديد إليها يدل على السكون يشبه العدد الحسابي «5» ، وقد كان في أول الأمر رأس الحاء «حـ» .

(4) تطلب الأمر كذلك وضع رموز ترمز إلى الحركات الطويلة تختلف عن الحركات القصيرة لئلا تلتبس بها ، فوضع الألف ، الواو ، والياء دليلا على الأصوات الصائتة الطويلة ، وهي ما يطلق عليها حروف المد في العربية ، وهذه الحركات الصائتة الطويلة تتصل بالأصوات الصامتة ، مثل: عاد ، شكور ، عليم. فوضع الألف للدلالة على التفتح الطويل ، والواو (و) للدلالة على الضم الطويل ، والياء للدلالة على الكسر الطويل . (ى) . وهي ساكنة لا تقع في أول الكلمة ، فالعربية لا تبتدأ بساكن .

ولألف المد وهمزة الوصل رمز واحد في الكتابة «ا» بيد أن همزة الوصل تقع قبل حرف ساكن في أول الكلمة، والألف لا تقع أولاً لسكونها ولا تسبق ساكنًا ولا تليه،ويفتح ما قبلها دائمًا .

ويلاحظ أن الألف تشبه همزة القطع المفتوحة في مثل «أحمد»، وهمزة الوصل التي تخلو من رمز أعلاها (رأس العين) في مثل «اسم ، ابن» ، ولكن الهمزة صوت صامت وهي شديدة في النطق وهمزة الوصل يتوصل بها إلى نطق الساكن بعدها ، وهي عبارة عن همزة خفيفة تصحبها كسرة وهي (الأصل فيها – أو ضمه) مثل اسم ، أو ضم في مثل: أُخرج، اقتل [1] . وكذلك حرف الياء يشير إلى ياء المد في مثل «سميع» ، وهي حرف صائت غير قصير ، ويشير كذلك إلى ياء الصامت غير المد ، وفي مثل يأكل ، يد ، يمين ، يسار . وحرف

---

(1) الفرق بين الألف ، وهمزة القطع والوصل أن الألف مدة طويلة ، وهو صوت صائت ولا يقع في أول الكلمة ، والهمزة صوت صامت غير مدة ، وكذلك همزة الوصل ليست مدة .

الواو يرمز إلى واو المد ، وهي صوت صائت غير قصير ، وإلى الواو غير المدة ، وهي صوت صامت فواو المد في مثل: أكول ، طموح ، والواو الصامتة ، والألف صائتة مد . ويفرق بينهم بإطالة مد الصائت ساكنا دون حركة ، والصامت قصير متحرك ، فالواو في نوي مفتوحة بينما (الألف) التي رمز لها بالياء خطا ساكنة مد وكذلك الياء رمز المضارعة في يبيع مفتوحة قصيرة الحركة ، وفي سميع صوت صائت ساكن طويل [1].

والدليل على أن الواو والياء صامتان في بداية اللفظ أن العربية لا تبدأ بساكن ، والصوائت ساكنة ، ويمكن وضع الحركات القصيرة على الواو والياء ، فعند بناء الأفعال التي تبدأ بحرف الواو أو الياء للمجهول توضع ضمة على الأول . ولا توضع حركات على الصوائت الطويلة (المدات) بل تسبقها على الحرف الذي قبلها ، فتوضع عليه لتناسب حركة الحرف الذي يليها ليسهل نطقها مثل: قال ، القاف مفتوحة ، لتكون دليلا على الفتح الطويل ، وسميع الميم مكسورة لتناسب حركة الميم نطق ، الكسر الطويل ، و «شكور» : الكاف مضمومة لتناسب نطق الضم الطويل ، وهكذا يوضع لكل صائت طويل حركة سابقة تناسبه .

ويتبين لنا بعد هذا العرض أن الكتابة العربية مقطعية ؛ لأنها رمزت للصوائت الطويلة بالحروف، ورمزت للقصير منها بالحركات، وهي ما خالفت فيه نظام الكتابة الإغريقية فقد رمزت للصوائت كلها بالحروف أو الحبشية القديمة الذي يكتب الحرف بمصاحبة حركته الطويلة والقصيرة ، ومثل هذا في الإنجليزية deep عميق دل رمز «E» على طول المقطع ، والكلمة كلها تعد مقطعا واحدًا طويلاً مغلقًا .

وقد عالج علماء العربية القدماء مشكلة عجز الخط النبطي عن التعبير عن النظام المقطعي في الكلام ، فالأبجدية التي استعارها العرب من الأنباط مجردة من علامات ترمز إلى الحركات الطويلة والقصيرة أو الأصوات الصائتة . فوجد علماء العربية ضرورة البحث عن رموز للصوائت لتسد النقص في النظام الأبجدي النبطي ، فاستحدثوا الحركات ، والرموز

---

(1) ارجع إلى: الساكن والمتحرك في علم اللغة ، اللسان العربي عدد 20/ 14 ، 15 وذهب الدكتور جعفردك الباب إلى آراء فيها نظر ولا تحظى بالقبول في كل الوجوه وقد خالفته في كثير منها.

التي تشير إلى المد (الألف ، والواو ، والياء) من جنس الصوامت نفسها ، فوضعوا ، رموز ثلاثة للمد الطويل في الفتح ، والكسر ، والضم ، (ا ، ى ، و) وعلامة السكون وعلامة التنوين في المفرد ، وعلامة عوض في الجمع ، وهي النون في جمع المذكر السالم والمثنى، والتنوين يرمز إلى السكون ضما وفتحا وكسرا .

وقد جعل العلماء رموز حروف المد ضمن الأبجدية العربية ، فزادوا فيها ألفا توضع بمصاحبة اللام في «لا» وواوا ، وياء. وبهذا تصبح العربية 29 حرفا بزيادة الألف في «لا» والتي تمثل ألف المد ، واللام حاملة لها . هما معا لا يشكلان رمزا ، وجيء باللام لئلا تلتبس الألف بالهمزة المفتوحة «أ» ورمز الألف كان قبل رمز الهمزة، ودليل ذلك الهمزة الأولى في اسمه «ألف» مثل باء، فاستعارة الخليل للألف، واختار للهمزة رأس العين، لأنها عنده قريبة المخرج منه، وقد جعل الألف رمز حركة المد؛ لأنه جعل الهمزة والألف صوتًا واحدًا . يبدل أحدهما من الآخر، فلم يفرق بينهما [1].

ودرس علماء العربية الأصوات من ناحية المخارج ، وقسموها إلى ساكنة ومتحركة ، واستخدموا مصطلح الحرف للدلالة على ما اصطلح عليه علم اللغة الحديث بالصوت ، وميز علماء العربية كما بينا آنفا بين الصامت والصائت .

ويرى علم اللغة الحديث أن الأصوات الصامتة وحدها يمكن أن توصف بأنها ساكنة أو متحركة [2]. أما الأصوات الصائتة سواء أكانت قصيرة (الحركات) أم غير قصيرة (أصوات المد) ، فيمكن بحكم طبيعتها وصفها بأنها ساكنة .

وهناك سؤال يطرح نفسه: هل أخطأ علماء العربية عندما وصفوا المدات الثلاث (الألف ، والواو ، والياء) بأنها سواكن أم أن مصطلح «ساكن» في وصف حروف المد له دلالة أخرى غير «السكون» ؟

---

(1) ارجع إلى الساكن والمتحرك ، مجلة اللسان عدد 20 ، ص15 .

(2) ارجع إلى الساكن والمتحرك ، اللسان العربي ص15 يرى الدكتور جعفر أن العربية ليست الكتابة العربية غير مقطعية وقد خالفته في ذلك .

يرى بعض الباحثين أن مصطلح ساكن الذي وصفت به حروف المد في علوم العربية ، يعني أن إشباع لفظ حركة المتحرك يشبه السكون ، فالإشباع بمد الحركة كالسكون لا ينتج عنه مقطع جديد ، بل يؤدي فقط إلى تغيير وصف المقطع ، والمد ليس فيه تنوع صوتي ، بل يلتزم فيه الناطق صوتا واحدا لا يتغير مخرجه ، فأصبح إشباع المد نظير السكون الذي يعني عدم حركة الصوت ، ومد الألف أو الياء أو الواو لا يظهر منه حركات كالتي تطرأ على الصامت . فعلماء العربية وصفوا المدات بأنها سواكن أي صائت غير قصير ، لأنها تظهر نتيجة إشباع الحركة المناسبة لكل منها ، وإشباع المد نظير السكون في غير المتحرك . ولا يشبع مد المتحرك مثل الواو المتحركة في مثل وزن ، وعوى صوت صامت وليس صائتا ، وكذلك الياء المتحركة في الفعل الماضي «يبس» صوت صامت .

والإشباع يكون في حرف العلة الساكن الذي سبق بحركة تجانسه ، فوضعوا لكل حرف صائت حركة تناسبه في ما يسبقه ، ولم يضعوا سكونا فوق المدات ، كما أن الواو والياء الصامتتان لا تسبقهما حركة تناسبهما أو تشاكلها في النطق في كل الحالات ، فكلمة عوى فتح ما قبل الواو والواو يناسبها الضم في حالة كونها صوتا صائتا ، والياء في بيت صوت لين وليس مدا ؛ لأنه لم يسبق الحركة تجانسه وكذلك الواو في قوْل لين وليست مدًا فالمد يلزمه حركة تجانس صوت العلة الممدود.

ونلاحظ أن الكلمات التي تتكون من صوامت يحظر فيها وضع سكون على الواو والياء إن كانتا صامتتين إلى جانب اختلاف حركة الحرف السابق لهما ، كما تقع الواو والياء الصامتتان في أول الكلمة ، ولو كانتا صائتتين لما جاءتا في أول الكلمة ، وأصوات المد لا تقع في أولها ، لأنها أصوات ساكنة .

وتعامل الواو والياء في وسط الكلمة ونهايتها معاملة الساكن والمتحرك في علم العروض ولا تأتيان ساكنتين في أولها ، كما أن إشباع حركة المد في العروض يعامل معاملة الساكن دون زيادة ، وهذا يدل على إشباع المد لا يولد مقطعا جديدا ، ولكن يؤدي إلى

وصف المقطع ، فنقول: مقطع طويل أو مقطع قصير [1] . وقد كشف العروضيون قديما عن النظام المقطعي في الألفاظ لتحديد الأوزان الشعرية ، وما يطرأ عليها من علل تغيير .

وقد وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي علم العروض العربي انطلاقا من خصائص النظام الصوتي في العربية الذي يقوم على أن الصوت الصامت المتحرك يمثل مقطعا صوتيًا ثنائيًا ، وأن الحركات لا تستقل عن الأصوات الصامتة ، وإنما تظهر في الأداء مصاحبة الأصوات الصامتة ، فميز الخليل بين الصوت الساكن والصوت المتحرك لتحديد أوزان البحور ، وعللها ، وميز بين الأوتاد والفواصل التي تتركب منها الأوزان [2] .

ويتبين من تحليل الأسباب والأوتاد والفواصل المقاطع الصوتية التي تتألف منها اللغة العربية:

1) السبب الخفيف وهو يتألف من حرفين أولهما متحرك وثانيهما ساكن (-5) مثل: لَمْ ، مقطع قصير مغلق (صامت مفتوح + صامت ساكن) .

2) السبب الثقيل ويتكون من حرفين متحركين (- ، -) مثل: لم (أر) قصير مفتوح + قصير مفتوح . ومثل: لكَ ، بِكَ .

3) الوتد المجموع ويتكون من حرفين متحركين وساكن (- ، -5) مثل على ، قصير مفتوح + طويل مفتوح (صامت + حركة مد طويلة) .

4) الوتد المفروق ويتكون من متحرك وساكن ومتحرك (-5 ، -) مثل: ظهْر ، قصير مغلق (صامت مفتوح + صامت ساكن) + قصير مفتوح .

5) الفاصلة الصغرى وتتكون من ثلاثة أحرف متحركة وحرف ساكن (- ، - ، -5) مثل: جَبَلَن ، قصير مفتوح + قصير مفتوح + قصير مغلق (صامت متحرك + صامت ساكن) .

---

(1) ارجع إلى الساكن والمتحرك ، اللسان العربي ص16 .

(2) ارجع إلى الساكن والمتحرك ، اللسان العربي ص16 .

6) الفاصلة الكبرى وتتكون من أربعة أحرف متحركة وحرف ساكن (- ، - ، - ، -5)
مثل: سمكتن: قصير مفتوح + قصير مفتوح + قصير مفتوح + قصير مغلق (صامت مفتوح + صامت ساكن)[1].

ويتبين لنا أن المقاطع العروضية تقوم على المقاطع التي تتألف منها الكلمات، ولا يمكن التعرف عليها من خلال الكتابة وحدها غير المشكولة بل من خلال الأداء الصوتي الذي يبين الساكن والمتحرك، والقصير والطويل والمدغم والمُظهر والمنطوق وغير المنطوق، وقد استعان العلماء بعلامات تزاد في الكتابة تعين القارئ على معرفة ذلك مع الرموز التي تعبر عن الحركات الطويلة (الألف، والواو، والياء)، والشكل المصحفي الذي وضعه العلماء يضبط قراءة النص، ويمكن من خلاله التعرف على المقاطع الصوتية في الكلمات .

وهذا مبلغ علمنا، وللعلماء في ذلك مذاهب وفوق كل ذي علم عليم.

---

(1) علم العروض والقافية ، الدكتور عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ص8 ورمز «-» للحرف المتحرك ورمز «5» للسكون .